

أشتاق لعائشة

نبيل أحمد الخضر

[HTTPS://WWW.NABILALKHADHER.COM/](https://www.nabilalkhadher.com/)

النازحون من كل مكان في الوطن يتوافدون يريدون الملجأ الامن.

أطفالهم يريدون اللعب.

نسائهم تريد الحب.

لكن لا أحد يهتم.

الصواريخ الاتية من بعيد لا تسمع

والرصاصات الاتية من قريب.

لا تنصت.

لكن كان هناك قلب يهتم. روح تتألم لأجل الاطفال.

كان الاطفال. وكانت عائشة.

- نفسي أعمل حفله للأطفال النازحين.

- أنتى حكواتيه مبهرة ومشهورة. أعملي ما تريدين. لكن إقراى لهم كتاباتي.

- ايووووة علشان يتعقدوا ... أكثر مما هم متعقدين.

- خلاص ما فيش حفله. ومفايش أطفال!!!

- لن تمنعني من ممارسة السعادة ونشرها ...

وحكت عائشة ...

هناك في محيط الاطفال في مركز النازحين. تراحم العشرات منهم حولها. يحدقون بها. وهي تحكى

لهم عن:

أطفال كما هم

أطفال عرفوا طريقهم.

أطفال لم يكونوا خائفين من الشرير ...

أطفال حاربوا الساحرات.

أطفال أكلوا التفاح وشربوا الحليب.

و بلا بلا بلا

احكي يا عائشة ...

عن طفل الثلج الأسود.

عن الحب حينما يكون معطاء.

عن الشعور بالظلم حينما يتحول الى كرم وعفو.

وقالت عائشة:

"طفل الثلج الأسود.

الذي احترق حد السواد في صندوقه الخشبي.

طفل الثلج الاسود وصندوقه الخشبي.

الذي يبيع فيه أنابيب الشوكولا.

طفل الثلج الأسود.

سال في شوارع المدينة السماوية.

تدفق. جدولا أسود ... مخترقا.

جبالا.

هضابا.

سهولا.

انسكب في النهر.

واحتضنه البحر.

انصهر أكثر حد الاستواء.

تلقت بعيدا بحثا عن رجاء صالح.

كثافته ازدادت في موسم هجرته الطويل الى الشمال.

تذكر ...

والده الحالم بأن يصبح تاجرا شهيرا في عمر الخامسة عشرة ... كما هو.

صانعا مستقبلا يشبه التاريخ المجيد.

حلم باللعب داخل أزقه الحارة السهرانة.

اقشعرت شعيرات جلدة.

اقترب من اراض باردة.

أناسها متجلدون.

تكتف.

تكون جسده الاسمر بشدة.

بعد حاله سيوله امتدت لسنين.

واجتمع الناس.

طفل ثلجي أسود.

الطفل الثلجي الأسود.

نظرت اليه نساء الثلج بافتتان.

نظر اليه رجال الثلج باستهجان.

أطفال الثلج خافوا.

بكت عيونهم الزيتونية.

تدلت أنوفهم الجزرية.

تمطت بحزن أفواههم الموزية.

التوت اعناقهم بكبرياء الى الأفق.

وتطاير شعرهم القطني.

وهربوا.

هربوا.

الى أباءهم الثلجيون.

وأمهاتهم الثلجيات.

ابتعد عنه الجميع.

طفل الثلج الأسود.

سالت من عينيه دمعه البنية.

مكونة.

دائرة.

توسعت.

توسعت.

توسعت.

لتصبح بحيرة بنيه متجلدة.

فرح أطفال الثلج.

خلطوا بياض الثلج. بسواد الشوكولا.

مكونين كرنفالا كالحلم.

وحدهم الاطفال فرحوا بالعيد.

فالعيد لذيد هذا العام.

في نهاية يوم العيد.

تناسى الجميع.

طفل الثلج الأسود.

لكنه ما يزال.

كل عام.

بدمعه واحدة.

يعطى كل أطفال العالم.

ما يحتاجونه من شوكولا.

وفرح".

وصفق الجميع لعائشة ...

وتلك الاعين الصغيرة المليئة بالخوف مما عاشت من قصف وحرب. شعت فيها أضواء الامل

والشجاعة والحب.

نعم فقد جاءت عائشة ...

وحكت عائشة ... رافعه صوتها في الاماكن التي تحتاج الى صوت مرتفع. مخفضة صوتها في

الاماكن التي تحتاج الى صوت منخفض. فحت بصوتها في الاماكن التي تحتاج الى الفحيح ...

صنعت حول الاطفال سياجا.

زرعت بداخل السياج ورودا.

سكبت في زنايق الورد فراشات.

قل يا مقدم الحفل.

قد جاءت عائشة ...

وحكت عائشة عن الفتى المسحور. تعرفونه. ذلك الفتى المسحور.

"في قريته السارحة.

على مشارف أحلام الضباب.

وقطن السحاب.

المستريحة أعلى قمة جبل شامخ.

كل شيء يتكاثر بين يديه

الفتى المسحور.

يخلق ترفا.

يخلق فقرا.

يخلق حربا.

في ليله ما. وجد أطفالا جائعون.

بين أكفهم الصغيرة قطعه نقد لا تكفي لشراء رغيف!

الفتى المسحور.

فرك القطعة في كفيه.

رماها الى سماء. لتصل الى سماء. تتلوها سماء.

لتمطر السحاب قطعا نقدية على أطفال العالم الفقراء.

الفتى المسحور.

يووب الى منزله سعيدا بفرحة الأطفال.

والدته المسجونة بين أذرع رجال أغراب.

والده المرمى على الارض كخرقة مهترنة.

والرجال الغرب. يحكمهم شخص بدين.

كأنه خرتيت.

الفتى المسحور.

فرك جمرة من الموقد

رماها الى سماء لتصل الى سماء تتلوها سماء.

وتمطر السماء قطعا نارية.

تحرق كل اشرار الأرض.

احترق البدين ورجاله.

ولكن.

احترقت والدة الفتى المسحور

احترق اصدقاء الفتى المسحور

واحترق منزل الفتى المسحور.

احترقت كفيه.

وكل ما حوله.

الفتى المسحور.

لم تبقى له غير حمامه.

كانت له صديقه وأختا.

الفتى المسحور.

يصعد الى اعلى قمة في الجبل.

ينظر الى كل النيران المنتشرة.

في كل أنحاء الأرض.

يفرك حمامته.

رماها الى سماء لتصل الى سماء تتلوها سماء.

وتندفع ملايين من حمامات سلام.

تغزو الأرض.

لتزرع المحبة.

وتخلق الفرحة.

وتصنع الجمال.

الفتى المسحور ما زال هناك.

يسكب من عليائه.

كل ما في نفوس العالم.

من سعادة.

ورضا".

قالت عائشة ...

- كلكم فتيان مسحورين ... أتيتم من أماكن يملأها العجب ... تغلفها الاساطير كلكم ستصنعون السلام. لا تسمعون لقتلة الخارج. لا تهتمون لسفاحي الداخل. اهتموا بأرواحكم. أجعلوها نقية ... شفافة. أخلقوا عالم جديد من بهجة وسرور.

- ياله إعزمنى على غداء. ما دام قرئت قصصك وخليتك مشهور يا نبيل!!

والاسواق ممتلئة يا عائشة.

رمضان على الابواب ...

الاسواق ممتلئة.

بالحب والكراميل.

بالبهجة والمهلبية.

بالسعادة وشورية كوكير ...

شوفي:

ذلك الطفل الذي يتقفز أمام رتل من المعلبات، يشير لوالده على موقع التمور ويضحك.

ويأتي صوت قصف من بعيد.

تلحقه أصوات مضادات ارضية قريبة.

والاب يعطى طفله علبة التمور ليحملها الطفل بذراعيه النحيلتين ...

والطفلة يا عائشة.

تشير لوالدها على موقع مكعبات الجيلي.

والدتها تبتسم ابتسامة مواسية ... ويضحك الاب معطيا لطفاته مكعبا واحدا ...

- واحد بس يا بابا!!!
- علشان أطيب خاطرش بس. مافيش ثلاجة.
- كذااااب يا بابا ... معانا ثلاجة ...
- مافيش كهرباء. بنتشوفي لما نولع الشمع طوال اليوم أيش معناه!!!
- هي الثلاجة تشتغل على كبرهء !!!
- ايووووة ... كبرهء.
- وترضى الطفلة بمكعب واحد ... وتحلم بأيام الضوء.
- زوجة جميله. بحجاب أزرق سماوي. تسكب في سلتها عددا من مكعبات الكريم كراميل.
- ابنها يضحك فرحا.
- وصوت رصاصات يقترب من الخارج ...
- وزوجها يسألها عن سر كل هذه المكعبات ...
- ضروري تحطهن في صواني معدن. مش زجاج.. وحطهن بين صحن مليون ماء وار صفهن
- على أعتاب نافذة يدخل اليها الهواء... أحسن من الثلاجة ...
- والطفل ينظر الى عبقرية والدته بانبهار ...
- وارتال من التمور تمور في الحارات.
- يوزعها أناس جعلوا من الشبع مشاعا.
- وقوافل من سكر.
- يساهم بها أناس عسليوا المذهب.

وأنت أمام صفوف السوبر ماركت:

- نشترى تمر..

- أسناني توجعني من السكريات ...

ويصطدم بنا طفل بدين على فمه أثار شوكلاتة. والدته تحتفظ بالكيس الفارغ لتحاسب عليه فلن يأكل

طفلها حراما ...

ونمر بجانب أكياس البقوليات ... فول. فاصوليا. حمص. عدس. من كل شيء تختار كيسا.

- أيوة كذا. حاجات رخيصة وتشبع البطن يومين متتاليين

رزم مكرونة.

قناني زيت.

قناني خل التفاح.

ورمضان جانا

أطفال في طريق العودة يحرقون إطارات سيارات ...

يدورون حولها كهنود حمر.

يغنون.

يا رمضان يا ابو الحمام.

إدي لأبى شغثة دراهم.

وفتيات في حلقات يغنين لرمضان.

يا قمر قميره. يا سراج الليلة ...

سربنا سرب الحمام والحمام طيارة ...

الشوارع ما تزال مظلمة. ولكن حرائق الاطارات في كل مكان ...

تحيل ظلام صنعاء نهارا ...

سقوف منازل تتدلى منها بطانيات مغسولة.

رمضان طاهر. وطول عمره يبقى طاهر.

نوافذ بداخلها أضواء شموع. تظهر منها أياد بضة. بيضاء. تمسح النوافذ.

عرق طاهر يسيل في شوارع المدينة. يعلن انتهاء التعب وبدء الراحة.

رمضان شهر النوم والمسلسلات ...

لكن مع عدم وجود كهرباء.

رمضان شهر النوم

- خذ هذا الزنبيل كمان. ثقيل على يدي يا نبيل!!

رمضان جانا ...

والقصف ما يزال ينهمر.

والموت ما يزال يزدحم على الارصفة.

لكن الناس تحاول أن تبتسم. وتبتسم. وتضحك ايضا ... تحاول العيش ...

هواتف ترن.

دعوات لعريسين لم يتما السنة الاولى من زواجهما ...

- اتصال من أمي ... تقول أول جمعه في رمضان عندها.

- اتصال من عمي قال خامس يوم في رمضان إحنا معزومين عندهم حينقضى رمضان وما

أكلت من شوربتك اللذيذة. السلته الحارة الذي بتعملها ...

قرية عائشة مشهورة بالفلفل الاحمر في كل أنحاء اليمن ...

كل طعامها حار. حار.

كحبها. كقلبها. كروحها ...

كل هذه الحرارة من حولي تجعلني كل يوم أتعطش لها أكثر فهي وحدها من تروى عطشي لها. هي

وحدها من تشعلني ... هي وحدها من تطفئني ...

- كبر المغرب. قوم من فوق اللابتوب وأفطر وصلّى يا نبيل.

- كل يوم صلاة. ورمضان كمان. يعنى فرض وسنه.

- ونوافل يا حبيبي!!!

- تعب. تعب.

- وقراءن كمان.

- أنا مش مؤمن من قال لك إني مؤمن ...

- يا واد يا مؤمن. ياله نبداً من أول سورة ...

- لا سأقرأ سورة يوسف ...

- طيب. يوسف وبعدين نبداً من أول القراءن.

- سورة يوسف وبعدين سأقرأها مجدداً الى أن ينتهي رمضان. يوسف قصة وأنا تربيت طوال

عمري على القصص.

رجل المستحيل.

مكتب رقم 19

ملف المستقبل.

وشوية شوية كبرت

روايات عبير. روايات زهور. قيس وليلى. روميو وجولييت.

وشوية شوية كبرت وعقلت.

مكتبة نوبل

الدواوين الكاملة لنزار وأدونيس والبردوني

والا سلسله عالم المعرفة الكويتية. كل شهر لازم وضروري أشتري الكتاب ويجب ان يقرأ

الكتاب خلال الشهر ... واجب عسكري....

أنا كائن قصصي يا عائشة سأقرأ سورة يوسف.

فيها غربة وفيها شوق. ظلم وفيها عدل. حب. وغرام. دراما وسيناريو وحوار.

فيها كل ما يحتاجه كائن ترعرع بين القصص.

سأقرأ السورة اول يوم.

وسأقرأها ثاني يوم وثالث يوم ورابع يوم حتى اليوم الثلاثون. سورة يوسف.

- على الاقل احفظ لك كم من سورة صغيرة بدل ما بتقرأ سورة الكوثر في كل صلاة يا نبيل .

أنا استمع للقراءن يا عائشة أكثر مما أقرأه ... أنا كائن سمعي ...

شوفي القريط في شهر رمضان في سورة الرحمن ... يا سلام ... لما يقول (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

يصدح صوته بأية سابقة ... وبعدها هذه الآية. ومن ثم أية لاحقه. ويتفنن في كل مرة يقولها فيها.

تكون صائم. راجع من شغلك تعبان وجوعان وعطشان.

لا تشناق لطعام أو ماء ولكن تشناق فقط أن تسمعه على قناة اليمن قبل المغرب.

والا محمد حسين عامر، من كانت يتردد صوته فجرا على الإذاعة في كل ميكروفونات مساجد صنعاء.
فتندفع ترددات صوته الى الجبال المحيطة. فتصبح صنعاء بأكملها ميكرفونا عملاقا.
تحس من قوة صوته. وروحانيته أنه رفع مدينه صنعاء بكاملها على كتفيه كجبريل وارتفع بها الى
السماء ... لتصبح مدينه سماوية ... ساعات بحس أنه لو ظل موجودا كنا أكثر تسامحا وسلاما مع
أنفسنا.

وإلا عبد الباسط عبد الصمد ... من يتقرب به المساكين لله عند موت أحبائهم. لا يسمعون إلا له. لأنه
يمسح دموع يتامى وأرامل المسلمين ويجلو حزنهم ويصبح صوته رسولا سماويا يجعلهم أكثر صبورا
وسلوانا.

هو من تسمعه لوحدك على المسجل في غرفتك وأنت مطفي النور فتلاقيه ظهر أمامك وأخذك في
حضنه وارتفع بك مع كل آيه يتلوها.

من سماء الى سماء الى سماء الى سماء ...

ويصل بك الى سدره المنتهى ويقول لك:

- شفت العرش يا بلبل؟؟؟ أمنت بالله.

فترد عليه: لا إله الا الله.

وبيداء بالهبوط بك الى الارض مع كل آيه يتلوها على مسمعك وتسمع صوته يقول (صدق الله العظيم)
وهو يضعك على أرضيه غرفتك المظلمة.

لأنك عاشق. تعيد التسجيل من أول وجديد علشان تحظى مرة بعد أخرى برحله سماوية جديدة ...

أنا كل يوم أرق عبد الباسط في رحلات من ذهاب وغياب. الى سدره المنتهى.

وخلينا نروح نلعب يا عائشة

وهناك أصدقاء ينتظروننا. ينتظرونك أنتى شخصيا. أنا العب وكأني في امتحان. أنتى تلعبين كما يجب
للعب أن يلعب.

مشاغبة.

مغالطة.

تشيعين السعادة في اللعب.

كروتك في " الكونكان " تتصلح أسرع من البقية.

في لعبة الكذاب. أنتى أكبر كذابة.

الاصدقاء والصدقات يرغبون بلعب الورق معكى يا عائشة.

لا تخافي صوت الانفجار أنا معك.

لا تخافي صوت الرصاصات في القرب فهي موجهه نحو السماء.

لا تفزعي من الراجع. اصلا صنعاء كبيرة. يعنى في النهاية رياضيا ما هو معدل سقوط رصاصه

بحجم بوصة على رأس بحجم الكف في مدينة مساحتها مئات الكيلو مترات ...

واحد في المليار. واحد في المليار ...

جدول الدعوات ممتلى.

سنبدأ من الغد تلبية كل طلب.

يكفي يومان رمضانيات أكثر حرارة من الطعام الهندي.

خلينا نصبح متذوقين للمطابخ يا عزيزتي.

وهناك على أعتاب شارع العدل.

في بلد لا يعرف معنى للعدل.

وعلى طريق تقاطع الجامعة.

في بلد لا تحترم التعليم.

كان هناك أطفال لأنصار الله يا عائشة.

دائما ما يوظف أنصار الله الاطفال في جيوشهم.

كان هذا يغضبك كثيرا.

يفتشون السيارات.

يفتشون الأشخاص.

يفتشون النوايا.

يبحثون في الاعين.

وفى الضمائر.

تصاعدت في الافق أصوات طلقات كثيرة.

قريبة منك. وأنت من تخافين صوت الرصاص.

لا تخافين أنا بقربك.

لكنك لم تكوني خائفة.

لأول مرة في حياتك لم تكوني خائفة من صوت الرصاص.

بالرغم من أنها بجوارك وعلى بعد أمتار منك.

لم تكوني خائفة كنت موجهة.

متألمة.

مجروحة.

يتدفق الدم من ظهرك.

وصدرك الحنون.

وعلى كتفيك الكريمتان.

تطير دمك في وجهي يا عائشة.

وتسربت حياتك من بين أصابعي.

التقطت أحر أنفاسك بقربي.

أطفال الأنصار.

صعدوا معنا السيارة.

كنتي تموتين وهم يطلبون من السائق الذهاب الى أي مستشفى.

كل المستشفيات بعيدة.

ذكرت أسمك في أذنيك الاف المرات حينها.

قلت لكي أن لا تتركيني.

أن لا تخذليني.

أن لا تخدعيني.

عرفتك محبة للحب والحياة.

للسوق والغرام.

للسعادة والفرح.

للجمال.

وخذعتيني يا عائشة.

وجهتي لوجهي صفعه ما سيتدرد صداها في أذناي حتى للأبد.

أنهكك منازل الموت. لملت ثيابك الملونة.

أعلنت هزيمتك بسهولة.

ورحلت.

لم يكن هناك أطباء في المستشفى

كلهم كانوا سعداء بالإفطار مع أولادهم.

والعشاء مع أمهاتهم.

إلا نحن. فطورنا كان الدم. عشاءنا كان الموت.

وصياح في ردهة المستشفى.

لأجلك.

وطفل من الانصار يصبح.

- يموت المئات من الرجال في الحدود يوميا وأنتم عاملين مشكلة عشان حرمة!!!

ويزداد الهرج والصراخ والبكاء.

ممرضون يتسارعون في ردهات المستشفى. يطعنوك بأنابيب وحقن. يضربونك بالكهرباء. يحاولون

سد الفتحات.

ودمائك ما زالت تسيل.

وروحك ما تزال ترفرف.

وضحكائك ما زالت ترن.

وحكاياتك تتداول في تجمعات الاطفال في هذه اللحظة.

ويتكاثر الأطباء.

يحاولون إرجاع الحياة لروح تشتاق الحياة.

ولا يستطيعون.

يحاولون. إيصال شرايينك المذبوحة.

رئتيك المتقوبة.

كتفك المكسور.

ولا شيء يجدي.

عرفت من أول لحظة أنك أصبحت في حضرة الله.

ذهبت الية لأنه الوحيد القادر على أن يجازى روحا زرعت ابتسامة في وجه طفل.

كان الجميع هناك.

أخوتك وأخواتك.

أصدقائك وصديقاتك.

محببك وأطفالك ...

كل يريد عائشة ولكن الله أرادها لتذهب الية.

كنتي تطردين الدم من جسدك كأنك تطردين الحياة.

الناس تزورك جميعا. وكلهم يرددون على مسامعك كلمة واحدة.

أنتى قوية.

ولكنك مثلما خدعتيني.

خدعتي الجميع وبابتسامة ساخرة.

رحلتي.

وطائر الخراب يا عائشة. أصبح يزعم على الأشجار.

النف حوله من على شاكلته.

ينعقون جميعا. مدشنيين عصر الجنون.

والكل مستغرب أنى لا أبكي في حضرة الموت يا عائشة.

هناك من يكتنم أنفاسي.

وبحذائه الضخم. يضغط على صدري بقوة.

وبكفة ذات الأظافر. يغلق فمي.

يقول لي.

لماذا تصرخ أنك في الجحيم

وأن سجن الحزن حولك مستديم.

والحرب تزداد قوتها ... الناس تقلصت مواردها مع الايام.

الدماء تسيل على الأرصفة تمتصها ألسنه الحرب. ترجع الحرب شابه. تحس بالنشاط. بعضهم يريد

محاكمتها. كم هم جاهلون. وهل هناك من يحاكم الحرب.

تاريخ الشعوب عبر الزمن كتبته الحرب فلماذا يحاكمون الحرب لماذا استدعوها اساسا وقد كانت في

مرقدها، غير قادرة على المواجهة في الاجواء يزمجر النار ويرقص الموت.

وجوة أعرفها. وبعضها لا أعرفه تقترب مني ويجذبون يدي المتدلالية.

بعضهم يقبل وجهي وأسمعهم.

- عظم الله أجرك يا أستاذ نبيل.